سامي الجندي

سورية.. رائدة كفاح

سُورِيّةُ .. رَائِدةُ كِفَاح

سامي الجندي

سوريّة.. رائدة كفاح

عرفت الفريق حـــافظ الاسد وما زال ضابطاً ناشئاً وتوثقت العرى فيما بعد في فترة الاعداد لـ / ٨ / آذار ، وبعد ذلك في الحكم. كان دائماً صادقاً وفيا ، لم ينحرف أمـــام اغراءات السلطة ولم يتلاعب بأفكاره تمسكاً بها .

كان يمتعض دائماً من رخص الآخرين وغوغانيتهم .

سامي الجندي

هذا الكتاب

منذ ما يقرب من سنة اضطر سامي الجندي .. الدكتور .. النائب .. ثاني اثنين في حركة الثامن من آذار .. الوزير .. رئيس الوزراء لساعات .. نائب رئيس الوزراء .. الملاحق .. المهدد بالقتل .. الشريد .. اضطر لمغادرة لبنان !! سافر الى تركيا فتعقبوه .. حل في الإردن فحاولوا قتله .. عاد الى باريس فلم يتمكن من الإقامة فيها .. وأخيراً وجد في تونس مكاناً قصياً حط فيه ، لا لينام ويرتاح بل ليفكر في وطنه وما جرى في هذا الوطن التعيس ، وقد اجتاح الشيب في الغربة القسرية قسماً كبيراً من فوديه .

لم يكن اسم الدكتور سامي الجندي يعني الشيء الكثير الكثير بالنسبة للشباب العربي ، فقد كان واحداً من هؤلاء الذين ساروا في قافلة الثورية ، ثم سقطوا على الدروب في متاهاتها الواسعة الشاسعة .

وعندما جاء دوره في السقوط ، وخيل لرفاق الأمس أنه انتهى ، بدأ نجمه في الصعود ، وصار يعني الشيء الكثير ، الكثير بالنسبة للجيل العربي .

لم يسقط لأنه كان مفكراً ، و ... أديباً .

عاش غربته في الاردن وتركيا وباريس ولبنان وأخيراً تونس ، وهو يتألم كأشد ما يكون الألم .. كان يعزّ عليه كثيراً ان يتحدث عن رفاق له عاش معهم وزاملهم ، ولكن ما فعله هؤلاء الرفاق دفعه لأن يتكلم ولو قليلاً ...

ان الأسرار التي يختزنها في قلبه تدفعه دائماً للتساؤل :

أهذه هي الدلة ؟ أهكذا يتصرف المسؤولون ؟ ان هذا الذي يؤلمنا ويبعث في نفوسنا الأسى ، ويشوّه تاريخنا ، قد يكون صوراً ضاحكة ، وممتعة وموضوع تسلية للآخرين .. ومع ذلك لا بد من رسم بعضها

ليعتبر النـــاس من تصرفات يخجل الانسان حتى من الإشارة إليها ..

حين قام الفريق حـــافظ الأسد بحركته بدأ قلب الدكتور سامي الجنـدي ينبض في تونس كما كان ينبض في دمشق يوم تعرّف على الفريق ... فبدأ يكتب ليعيد النسغ يجري في العروق البعيدة في سورية جريهـــا في عروقه التي في صدره ...

ان مـــا فعله اللواء صلاح جديد وشلته في سورية مثل قاتم ماذا يفيد لو أنكرناهـــا كحقيقة واقعة ؟

من هـــذه الزاوية يكتب الدكتور سامي الجندي ليحذر ... لينبه ... ليذكّر ... انـــه يكتب ليثير المروءات ويهزّ الحمية الغافية ...

لقد استطاع الفريق حافظ الأسد ان يهزّ ضمير سورية من جديد ، وضمير سامي الجندي أيضاً ...

سامي الجندي ينقلنا في الفصول القادمة الى الأجواء التي عاشها ، ويدفعنا دفعاً عبر صوره لنتخيل أية هوة أعدّها صلاح جديد وشلته لسورية ...

يا صلاح جديد ماذا فعلت بوطني ؟

الناشر

الكفاح المسلح هو كفاح
شعبي طوعي وهيهات أن
يقاتل شعب سورية وهو يساق
سوقاً . . لقد أفقده الاضطهاد
كل قدرته على المقـــاومة .
مستحيل عليه بـــل على أي
شعب آخر أن يقاتل وهـــو
مستذل ، مسلوب الحرية .

سامي .. أيها المجنون

هذه المقدمة دفعتهـا الصدفة لتحتل مكانهـا في هذا الكتاب، فكاتبها أحد أعلام الفكر في دنيانا الجريحة ، أمضى شطراً كبيراً من حياته بين الكتب قديمهـا وحديثهـا ، عاشر العقلاء والمجانين ، وعرف عن كثب صغار الثوار وكبارهم . وكان لا بـد له من أن يمرّ على السجون والمعتقلات ، وقـد خلص من كل هذا الى النتيجة التالية :

لا نجاة لإنساننا في هذا الوطن إلا بالإيمان والتمسك بقيم الحق والخير والجمـــال ، لأن هذه القيم ضرورية لعصرنا المضطرب .

هذا المفكر الحر قرأ كل مـا كتبه الدكتور سامي الجندي بما فيه هذا الكتاب وكان ما يزال (بروفات) وأمسك بالقلم وراح يسود الصفحات .

لم يكن يعتقد أن كتابته ستكون مقدمة ، كان يسجل على الورق احاسيسه ... وكان يريد أن يحتفظ بها لنفسه ، وحين غادرنا نسي أن يأخذ أوراقه معه ...

أول سطر خطه جاء فيه :

سامى الجندي مجنون ... أحسّ ان صدره يتمزق من هول مـــا رأى وسمع ، فانطلق بجميع جوارحه المتأثرة المتشوقة الى شعور جديد واحساسات لا عهد لنا بمثلها ، وخط بدمه آخر انتاجه .

هذا المجنون هاله بشاعة جريمة بعض الرفـاق بحق الشعب العربي في سورية فلم يجد أمامه سوى القـــلم فأمسكه وأخذ يملأ الأسطر !

ويمضي هذا المفكر العربي معلقـــاً على فكر سامي الجندي فيقول :

المقدمة

لأول مرة كما أعلم يتيح قطبٌ من أقطاب حزب البعث، ومؤسس من مؤسسيه، ومشارك عن قريب قريب في تطوره وأحداثه وأساليب حكمه، يتيح للقراء العرب الاطلاع على بعض الأسرار التي صاحبت قيام نفر من هذا الحزب سمحت لهم الظروف ان يحكموا ويمسكوا بزمام السلطة ...

كان هؤلاء بـ (جديدهم) و (أتاسيهم) و (عشاويهم) يملأون الدنيا صياحاً بتحررهم وتطرفهم .

والحق ان العرب قد أصبحوا في حاجة ماسة الى من يفسر لهم تصرفات هؤلاء المشوهين المشبوهين بعد ان حاروا في فهمها وتعليلها ، ولا سيما موقفهم من حرب حزيران، وكيف أحجموا عن المسارعة بالإسهام فيها مع أنها في الأصل قامت من أجل سورية ، وانقاذها من هجوم مدبر عليها ... وكانوا في هاتيك الأيام يقبضون على عنق السلطة بزخمهم واتهاماتهم ، وشراستهم !

وأصبح العرب في حاجة الى من يفسر لهم الكثير من التناقضات التي وقع فيها هؤلاء الحكام ، والتصرفات الجائرة التي تحمّلها الشعب بمرارة ، بعد ان انتظر كثيراً حكماً عادلاً وطنياً يسعد فيه بعد ان تخلص من الأجنبي ...

وجاء الدكتور سامي الجندي فكشف عن كثير من الغموض والتناقضات التي حار الناس في فهمها ، والتي تحمّل الشعب وزرها وناء بحملها ... حتى ضاق بها وأصبح مع كل تنفس يتحين فرصة الخلاص منها ... وحين أعلن الفريق حافظ الأسد عن حركته التي أعادت لسورية إشراقها من جديد ، انطلق سامي الجندي يتنفس ملء رئتيه بعد ان كاد يفقد أنفاسه !

ومن هنا كان ما كتبه سامي الجندي في الماضي والحاضر وثيقة يكتبها أعرف الناس بحقائقها ، او اعترافات خطيرة تكشف بل تعري تماماً أولئك الذين ادعوا يوماً ما الإخلاص للشعب والعمل من أجل تحرره، وبالرغم مما ذكره الدكتور سامي من اعترافات مزرية بجماعة صلاح جديد ، ومن حقائق مخجلة لكل من اشترك في صنعها ، وبالرغم من أنه لم يبرىء نفسه مما حدث ، فاننا نلمس انه لا يزال مخلصاً لفكرة البعث ، داعياً الى تطهيرها ، او تخليصها من أشخاص لعبوا بها وأساؤا اليها ، والى الشعب باسمها . وهو يمثل بهذا اخلاص المفكر لفكرته ، وتعصبه للاصالة التي آمن بها وقضى سحابة شبابه وكهولته من أجلها ... بصرف النظر عن تقدير الآخرين لهذا الاخلاص والتعصب ...

محال ان يحيط العقل باحداث حكم صلاح جديد وتطوره ، لأنه ضد العقل والمنطق .. كل عقل وكل منطق ، ولم يعرف تاريخ الشعوب والقبائل المتوحشة فوضى تحللت من كل خلق مثله . كل تعليل خطأ ، كل تسلل في الحوادث خطأ مهما جهد المرء في أن يردّ الأمور الى أسبابها كي يقيمها . فالعلاقة ما بين الأسباب

معدومة ، مهما حاول ان يقيم علاقة مـــا بينه وبين الحكم ... انسانية كانت أم سياسية . لا يعرف المسؤول اذا كان مسؤولاً ، ولا الموظف اذا كان موظفـاً ، ولا المواطن اذا كان مواطناً ... زالت كل القيم وكل مـــا يحـــدد الروابط السياسية والوشائج الاجتماعية .. كل الأحكام صحيحة ، وكلهـــا غلط ، تظن نفسك – في دوامة حكم صلاح جديد – مسؤولاً ومخططاً تمد التاريخ فإذا انت لا شيء ، ثم ترى بعد قليل انك هام جداً ، ثم لا شيء ..

وهذا الوصف ليس من عندنا يأتي ، وإنمـا هو من لدن الدكتور سامي الجندي ، والى هـــذا الدرك تردى وضع سورية كما جادت به ريشة أحد رفاق صلاح جديد الكبار والمسؤولين عن الحكم في تلك الفترة ...

نكبة على الوطن والمواطنين ، وأسوأ صورة للحكم الوطني تتقزز منها النفوس . وتتساءل : ترى هل هذا هو الحكم الذي حـــلم به الشباب وضحوا بالكثير في سبيله ؟.. وهل ما يزال هناك من يؤمن بهذه الصورة القاتمة ، ؟.. لعل الفريق حافظ الأسد قد أعطـــانا

الجواب من ذات نفسه حين أقدم قادراً على حركته ، فحجز على ثلاثة من المرضى وقال للشعب :

هؤلاء هم الذين ركبوا قنطرة الحكم ، ولا يستحقون اكثر من حمايتهم في السجن خوفاً من غضب الشعب !

انها لفجيعة كبرى لهؤلاء الذين آمنوا لفترة وجيزة بهذا الانسان المريض في فكره وجسمه ، وظلوا يحلمو ا بالصور الخيالية التي كان صلاح جديد ورفاقه يبشرونهم بتحقيقها ، واذا بالنتيجة تتكشف – بكل هدوء – عن عزل ثلاثة فقط عن مواقعهم ، فاذا بالدنيا تصحو ، واذا بالأمطار تهطل ، واذا بالبشرى تعم العالم العربي .

والدكتور سامي الجندي يصور لنا في الصفحات التالية الخراب النفسي داخل نفوس الكبار الذين كانوا يمثلون القمة في حكمهم ... وهذي صورة من الصور ذكرها المؤلف عندما تكلم عن حركة الثامن من آذار :

(أذكر اني لما ذهبت أقابل الرئيس الراحل عبد الناصر في كانون الثاني سنة ١٩٦٢ من أجل احاطته علماً بالانقلاب الذي ازمعنا انئذ على القيام به ... سألني أسئلة عديدة منها :

والرائد جديد وحدوي ؟

قلت :

نعم !

وكرر السؤال فكررت الجواب . ظن اني لم أصدقه يومها ... لم يعلم اني كنت مخدوعاً) .

ويتحدث الدكتور سامي من خلال موقعه حينما زج به في السجن :

(كانت السيدة (ا. ح.) . أمـــامي رغم اني لم أرها إلا في حكاية سجين بائس ...

كان سجناً يختلف عما عهدت ، حال فيه الانسان الى رعدة راعبة : الترقب والخوف يهيمنـــان على كل نأمة ، نخـــاف كل شيء ، نخاف بعضنا ، لا نعيش ، نخاف فقط ، نخشى ان تبدر كلمة او بعض كلمة فيتلقفها أحـــد البائسين الذين اشترتهم الأجهزة فيبدأ عندئذ التحقيـــق . نعم ، التحقيق ذلك الوحش العجيب ... كما كنا نخشى أكثر من كل ذلك دخول السيدالملازم ، دون سابق انـذار ، منتفخ الأوداج كمنتصر في غزوة فيشتم ويهين ويضرب ويفتن باظهار براعته في الجيدو والملاكمة ، وأشهد أنه كان ماهراً ...)

ولم يفت الدكتور سامي ان يتحدث عن صلاح جديد ، وابراهيم ماخوس ، وعيد عشاوي ، ويصف الأول بالذكاء... ويصب سخريته الموجعة على الثاني ، ويتغافل عن الثالث فلا يذكر حتى اسمه مستعيناً بالحروف الأولى ... وان كان لا يفوته أن يعلن ليس معنى ذلك انه ضد الاشتراكية ، ولكنه ضد الأساليب التي اتبعت لتحقيق هذه الفكرة ...

وهذا الكلام يقودنا بداهة الى القول بأنه مسؤول من قمته الى أخمص قدميه ، ولكن ما جدوى اعترافه الآن بهذا بعد ان خرج من الحكم ؟ انه لا يجدي إلا العبرة لكل من لا يزالون مخدوعين بحكم صلاح جديد.. هذا اذا بقي هناك من يخدع !

لقد أعطانا الدكتور سامي باعترافاته بعض الصور المخزية المبكية لحكم صلاح جديد في سورية ، ولا خلاف في أن هناك صوراً كثيرة أشد خزياً لم يتسع للكاتب ان يرويها ، وعلى الفريق حافظ الأسد واخوانه ان يخرجوا هذه الصور من مخابئها ويطلعوا الناس عليها ، وهذا أقل ما يتوجب عليهم .

والنهاية على كل حال أليمة ... أليمة بالنسبة للذين صدّقوا صلاح جديد واسطورة ذكائه ، وأليمة وأكثر من أليمة بالنسبة للشعب الذي حكمه هؤلاء قبل الخامس من حزيران وبعد الخامس من حزيران ... وأليمة بالنسبة للرفاق الذين يحاولون إسدال الستار عن الماضي الأسود الفاحم ، وأخيراً أليمة بالنسبة للعرب جميعاً ، لأن هؤلاء جزء من جسم العروبة : وهو مع الأسف جزء بالغ الفساد .

الدكتور
محمد صادق

سورية .. تطرح أوزار الدكتاتورية
لتعود رائدة كفاح .. وقائدة طريق

لقـــد دفعـــوا بأشلاء
الانتهـازيين والمتعيشين بعـد
أن اختبروهم عـــبر التقرير
والوشاية والترويج للاشاعة
الى المبالغة بالاشتراكية اللفظية.

سورية .. رائدة كفتاح

الذين قرأوا رواية (صديقي الياس) أو (صديقي اليأس) أخذوا عليها إغراقاً في الرمز ، وغموضاً في الفكرة ، ذلك أنهم يجهلون إني كتبتها بأصابع الخوف والحذر ، وفي جو خانق معتوه تخلع فيه الأشياء ثوب الواقع كأنها قدّت من عالم خلقه جني مجنون ... كانت

حروفها تقلق صمت الحزين آناء النهار فتنتظر الليل حتى ينتصف فيرقد الحارس ، والواشي بعد أن تمل عيونهما مراقبة الذين لا يستطيعون شيئاً وراء قضبان السجن حتى أضعها على الورق في توتر مختنق . كنت أخشى أن يكتشف كتبة التقارير أوراقي فتصبح الرواية جريمة... لم تكن الحياة عندي آنئذ غير رموز سوداء ...

كان سجناً يختلف عما عهدت ، حال فيه الانسان الى رعدة راعبة: الترقب والخوف يهيمنان على كل نأمة، نخاف كل شيء، نخاف بعضنا ، لا نعيش ، نخاف فقط، نخشى أن تبدر كلمة أو بعض كلمة فيتلقفها أحدالبائسين الذين اشترتهم الأجهزة فيبدأ عندئذ التحقيق . نعم التحقيق ذلك الوحش العجيب ... كنا نخشى أكثر من كل ذلك دخول السيد الملازم ، دون سابق انذار ، منتفخ الأوداج كمنتصر في غزوة فيشتم ويهين ويضرب ويفتنُّ بإظهار براعته في الجيدو والملاكمة ، وأشهد أنه كان ماهراً .

رغم كل شيء كانت تعقد حلقات صغيرة تتناقل في همس واجم حكايات السجن . أروي إحداها للقراء تلك

التي أوحت بـ (صديقي الياس) أرويها بكل بساطة :

(ا. ح.) كانت صحفية تعمل في جريدة « البعث » سجن زوجها ، ذهبت الى السيد وزير الداخلية السابق (ع. ع.) ما دامت لها عليه دالة الرفيقة ترجوه بزوجها رفقاً ... يبدو أنه طلب عفافها ثمناً ، جرياً على تقاليد العصابة التي حكمت سورية وادعت زيفاً ومكراً انها اشتراكية وحدوية وانها فوق ذلك، يا لزيف التاريخ... مؤمنة بالحرية .

رفضت السيدة ... أدخلت السجن ... قـــد لا تعني هذه الكلمة كثيراً لمن لم يسجن في أبراج القلعة في دمشق ... في الزاوية الغربية الشمالية سجن النساء ، محترفات من كل نوع وجنس ، يصحن دائماً في كلمات لم أسمع من قبل مثلها عهراً ... وأشياء كثيرة لا مجال لذكرها وأظن القارىء يتخيل ما أعني .

لم تحتمل (ا. ح.) الجو ... في اليوم الثاني صبّت على نفسها الكاز وانتحرت محترقة . كانت اخر كلماتها (ليفرح ع. ع.) .

في مؤتمر ١٩٦٩ القطري أجـاب الوزير نفسه على

الحملة التي شنها عليه بعض الأعضاء انه لم يسجن أحداً إلا بناء على قرار اجماعي من القيادة القطرية (في تلك الفترة كان الفريق الأسد لا يحضر اجتماعاتها) ... وعلى ذلك لم يحتج حتى الى نقـــد ذاتي تبريري تهريجي ... كانت القيادة المصطنعة مجمعة على تصرفاته . . . ذلك كان كافياً لبراءته ولأن يغسل يديه من دم الانسان في سورية .

أمامي رسالة جاءتني بعد سنة ونصف من الانتظار أو تزيد . لم أعرف خلالها إلا القليل القليل عما حاق ببيتي . . رسالة تقول لي ان ابنتي فقدت الذاكرة وألا أمل من شفائها . . خبر صغير صغير .

كلمات قليلة وأمامي البحر لم يتبدل فيه شيء ، صامت جامد لم يدرك الرعشة التي تنزو سماً في عروقي، ولا العرق البارد الذي يأكل جبيني ، ولا اجهـــاشة روحي التي تقرض عظمي ، عميقاً ... عميقاً ... كأنها في واد سحيق قفر من الحياة والموت، من الحقد والحب، مظلم أسود حتى لأضع يدي على عيني فلا ترى . . ان

الاب ليستجير بالعمى كي لا يرى ذاكرة ابنته عمياء بلا عيون .

كانت السيدة (ا. ح.) أمامي رغم اني لم أرها إلا في حكاية سجين بائس ، فالبحر يغدق اليوم ، على غير عادته ، صور مخيفة سوداء كالنار تحرق جسداً شريفاً . كأني في سجن القلعة تتردد في صميمي أول جملة من الرواية : (اغتصب اللقطاء كل الأجساد . . . الارض باتت زانية) . (كأني بجسد سورية يحترق بين يدي فاحترق معه قلباً وروحاً وأعصاباً ، كأني بالظهر انقلب نصف الليل واني أكتب في أبراج القلعة عذاب سورية ...) .

... كأن ذاكرتي فغرت حافظتها فأفرغت أمام عيني صور حكم صلاح جديد من أوله الى آخره في موكب جحيم أسود لئيم ، وما أظلم ذاكرة الاب الذي تفقد ابنته الذاكرة ، تنتقل الى عقله في غلالة سوداء فتصبغ بالمرارة رؤياه الى الأبد .

كنت أود ألا أكتب عن حدث سورية الأخير خفراً فقط ، خشية أن يظن القارىء إني أفعل ملقاً أو زلفى

أو طمعاً في منصب ، رغم إني منذ أنبــاء المذياع : تعربد في أعماقي الكلمات حتى لتحرق أصابعي . فضلت التريث وسؤال يراود ذهني : هل نحن أمـــام طريق جديدة تنسجم مع مسؤولية سورية التاريخية ؟

لقد كتبت عن حكم اللواء جديد وفضحت عوراته دون وجل : وأصبح معنى الكتابة الآن تأييد الفريق الاسد ، فكان لا بد من أن استأني رغم كل ما أكنه له من تقدير ، وتأييد الكاتب يجب أن يجيء عن قناعة يكونها النهج السياسي لحكم ما .

عرفت الفريق الاسد ومـــا زال ضابطاً ناشئاً ، وتوثقت العرى فيما بعد في فترة الاعداد لـ / ٨ / آذار ، وبعد ذلك في الحكم . كان دائماً صـــادقاً ووفياً ، لم ينحرف أمام إغراءات السلطة ولم يتلاعب بأفكاره تمسكاً بها .

كان يتمعض دائماً من رخص الآخرين وغوغائيتهم ، ومع ذلك كنت أود ألا أعبّر عن رأيي الآن ، فقسرت الكلمات منذ / ١٣ / تشرين الثاني عن البـــوح ، وأنا — منذ أجل — مصمم على استقلال نفسي ، والبعد عن

السياسة بخيرها وشرها ، عازم على ألا أكتب إلا ما اقتضته القضايا الوطنية عامة ، فتكون لآرائي استجابة أعم ، غير أن رسالة صغيرة بسيطة انتزعت من دفتر طفل مشوق ، وذاكرة طفلة باتت لا تعي الكلمات لم تدعا للصمت طاقة على الصبر .

قد أكون أحرى الكتاب في قول رأيي عما حدث أخيراً في سورية ... سنتان والموت مني قاب قوسين :

كنت قتلت في عمان ، كنت خطفت في لبنان ، ثلاث محاولات علمت بها في ازمير ، ويبدو أن هنالك أخرى لم أعلم بها . نعم كنت قتلت أكثر من مرة ، ولكن الذين اختارهم اللواء جديد كقتلة لم يكونوا قتلة حقيقيين . أبناء شعب ... بؤساء ، رأيت في عيونهم أضعاف ما في قلبي من الشقاء . كانوا بين أمرين : دمي أو جوع أطفالهم ، فكانوا يحتالون على البؤس بالبؤس كي لا يجري دمي على رصيف مجهول في ازمير ولا يجوع أطفالهم .

من هذه الزاوية ، من البيت الصغير الذي صادرته الدولة ، والتهديد بتشريد الأطفال ، وعناصر المخابرات

التي تخبط البـــاب بالمسدس بعد نصف الليل كي لا يلم الوسن بعيون الأطفال ما دامت دمشق خائفة واجفة .

من هذه الزاوية أكتب ، عين الزاوية التي تنظر منها دمشق الى ما حدث ، فقد جعل منهـــا اللواء جديد سبية في سوق نخاسة ، غابة وحوش ومغارة لصوص ، وهي الآن تأمل أن تعود كما كانت عبر التاريخ حاملة راية وقائدة نصر .

كتب الملقون جميعاً من زاوية جد مختلفة ، أظنها ميتة ، بعيدة عن عواطف المقت والفزع واليأس والأمل من زاوية المنطق البارد الذي اذا كان أدرك مرات كثيرة ما كان يجري في سورية بين الحين والحين فإنه الآن غير مستوعب . سورية لم تعد تعنيها السياسة في المرحلة الأخيرة ، كانت تعنيها كرامتهـــا أولاً ، ولقد كانت مهدورة ، كان يعنيها أن يكون الانسان فيها انساناً حقيقياً ، كانت تبحث عن الخلاص من مجموعة لا تنتسب إلا الى الوحش . أرى في الحديث الأخير قبل كل شيء ردة فعل انسانية ضـــد الجريمة التي شاء كثيرون أن يسمونها زخماً ثورياً ، افتراء على كل ما هو عقيدة .

سنوات وسورية بلا دولة ... أعصاب اللواء جديد وقرحته المعوية هي الميزان والقانون والنظام والفوضى والمحكمة والادانة والعقاب ، وحوله الصغار يرقصون على حبل السلطة ، وينقرون على دف الشعارات والاذاعة في حناجر موتورة ، ونهم مخيف ، لاذلال الشعب والولوغ في دمه . والوشاية والتقرير لحمة الدولة وسداها ، والتحقيق بتربص بالمواطنين يحسب عليهم خلجات القلب ، دوائر الدولة حالت الى محاكم تفتيش . عندما استدعيت من باريز وجدت وزارة الخارجية مخفر تحقيق لا أكثر ولا أقل .

عندما سمعت ان الاذاعات تتوجس من حدوث مظاهرات لصالح جديد ورفاقه لم أتمالك من أن أضحك ، وأذكر كيف وقف الدكتور يوسف زعيّن في مؤتمر ربيع ١٩٦٩ يهدد بالشارع ... كان يظنه معه ، يموت به وجداً ، ويعجب كيف يمكن للشعب أن يعيش دونه . كان جاداً في ذلك ، ولما نحي عن رئاسة الوزارة أطلق حزناً على مصير الوطن ذقنه ، تماماً كما آلى بعد حزيران الا يخلع ثوب الميدان حتى تتحرر فلسطين وبقيادته . أخذ يسير بين الحين والحين في

الشوارع القريبة من بيته فيسأل الباعة عن أرائهم فيما حدث ، وعن رأي الشعب وحزنه للفراق المقسور . كانوا ينظرون اليه بكثير من السخر والخبث ويتساءلون :

أحقاً هذا الذي كان رئيس وزرائنا ؟

كان صعباً عليهم ان يصدقوا . ترى لو تركه ورفاقه الفريق الأسد للناس ما كان يكون مصيرهم ؟

أحاول كثيراً ان أفهم لِمَ اختار اللواء جديد من اختار لقيادة الدولة فلا استطيع . لا بد ان في الأمر سراً فليس هو بالغبي الذي تخفى عليه امكانياتهم الضعيفة او مخازيهم . كان يعرف عنهم كل شيء : من الفضائح الدبلوماسية التي كان بطلها الدكتور ماخوس (أذكر واحدة منها على سبيل المثال : في حفل العشاء الذي أقامه الدكتور زعيّن على شرف الرئيس بومبيدو وكان رئيساً للوزراء . وبحضوره أقدم أحد السفراء العرب وشتم ابراهيم ماخوس أمام الجميع ولما أجابه الماخوس هدده بالضرب بعد الانتهاء من العشاء ، وأراد التنفيذ فعلاً لولا تدخلي وتهديدي ..)

الحادثة يعرفها الوسط الديبلوماسي العربي في باريس ويذكرها بكل خير !

اللواء جديد يعرف أيضاً السرقات، التي ترتدي طابع المشروعية ، ويعرف أكثر وأخطر من ذلك ، يعرف الصلات المشبوهة ..!

لم يكن ما حدث صراعاً بين جناح عسكري ، وآخر مدني كما شاء كثيرون ان يصوروه ...

أفهم عندما يقال، صراع مدني عسكري انه بين أحزاب شعبية كبرى والجيش ، بين زعماء شعبيين وقواد عسكريين ، ولكن هل كان (زلم) اللواء جديد زعماء شعبيين ؟ ترى لو رشح الدكتور الأتاسي نفسه في انتخابات نيابية عن حمص هل ينجح ؟ أكثر من ذلك لو رشح نفسه في انتخابات حزبية حرة في حمص وعن حلقة لا يتجاوز اعضاؤها السبعة هل كان ينجح ؟ أشك في ذلك ...!

أذكر أنه في اليوم الذي جاء فيه عضواً للمجلس الوطني لقيادة الثورة تلقيت رسائل عديدة من الحزبيين تنعي عليَّ دعمه وتنعت تعيينه بالتآمر .

ترى لو رشح الدكتور زعيّن نفسه لمنصب مختار في البوكمال أكان ينجح ؟

كان الصراع بين الأجهزة المرتبطة باللواء جديد وبين الجيش قد بلغ أوجهه وبات من المستحيل ان يحكم اللواء جديد سورية باسم الجيش ، واعتماداً عليه ضد ارادة الشعب والجيش باسم مشروعية ركّبها تركيباً ، وادعى أنها قرارات حزبية ، وما معنى الحزب اذا لم ينبع بتكوينه وتنظيمه وأعضائه وقراراته من الشعب ؟ ما معناه اذا لم يكن استجابة عميقة لأماني الشعب وإرادته .

كانت الأجهزة هي التي تصنع الحزب ، تدرس الانتسابات وتضع سداً بينه وبين الشعب حتى لا يغدو قوة جماهيرية يصعب لجمها فلا تبيح الدخول إلا لمن اختبرته عبر الوشاية والتقرير ، ثم تدير الأجهزة نفسها الانتخابات الحزبية فلا ينجح إلا من اعطاه اللواء جديد النور الأخضر حتى تظل الأكثرية بيده ... من مرّ بمراحل الاختبار وجدناه عضواً في المؤتمر ، طويل اللسان كثير الهذيان ، وفوق ذلك مناضلاً ...!

كان التقرير وحده هو سبيل السلطة : وزراء ملأت صورهم الفاتنـــة الصفحات الأولى كانوا يبدأون يومهم بالمرور بمكتب متواضع فيقدمون حصيلة اليوم السابق مما التقطته آذانهم من اخبار ، ثم يعرجون على مكتب الوزارة ، فتحول مسكنتهم الى أوداج منتفخة وعجرفة أمام الموظفين البسطاء .

كنت أحار في أشياء كثيرة ومـــا زلت حائراً . أرادت الصحافة ان تصور (زلم) اللواء جديد يساريين متطرفين وثوريين أيضاً ...

تروي دمشق النكتة التالية :

وجد سائق اللواء جديد نفسه أمام مفترق طريق فسأله :

سيدي اللواء أتجه يساراً أم يميناً ؟

فأجاب اللواء :

(أشر بالنور لليسار واتجه يميناً) ..

عندما جاء الدكتور زعين من لندن واشترك لأول مره بالوزارة ، اعتبرت المصادر الشرقية ان وجوده

فيها دليل تغريب ، وسجلت نقطـــة على الفريق امين الحافظ الذي كان يلح على تعيينه ، وعجبت فيما بعد . حين سمعت انه بات أشد الناس تشريقاً ... كان الأمر جد سهل ، بدل في الداخـل معلماً بمعـلم ، وكذلك في الخارج في قفزة على حبال اللواء جديد .

عـــدة سنوات والنور يساري ، والطريق يمين ، والخناجر تزعق ضد الامبريالية ... أعــود الى الوراء فأتساءل :

ما هو الموقف الذي اتخذته السياسة الجديدة ضـد الامبريالية عربياً وعالمياً فلا أجد ... على العكس نفذ سياستها بكل أمانة .

على صعيد العلاقات العربية لم تخرب فكرة الوحدة فقط ، وإنما كل امكانية اتفاق مع كل بلد عربي على حدة من المحيط الى الخليج ، فالوحدة لم تكن غير شعـــار مناسبة ، من قال بها كان رجعياً ويمينياً الى آخر ما في القاموس من صفات عجيبة .

أذكر اني لما ذهبت أقابـــل الرئيس الراحل عبد الناصر في كانون الثاني سنة ١٩٦٢ من أجـــل إحاطته

علماً بالانقلاب الذي ازمعنا آنئذ على القيام بـــه ...
سألني أسئلة عديدة منها :

(والرائد جديد وحدوي ؟) .

قلت :

(نعم !)

وكرر السؤال فكررت الجواب . ظن اني لم أصدقه يومها .. لم يعلم اني كنت مخدوعاً .

أين إذن كانت تقف سوريا في عهد اللواء جديد ؟

كانت لا تستطيع الوقـــوف فقط ، كانت محطمة الكرامة مستذلة مهانة ، دون سياسة ، غدت نقطة الضعف العربية . عزلها عن العروبة ففصل بينها وبين التاريخ ، بينها وبين الحياة، جرّدها من معناها الروحي وتقاليدها لأن سورية وحدوية أولاً .

كان ينادي ويدفع للحرب مع اسرائيل دون أن يعد للنصر ، يخرب كل امكانيـــة توحيد بين الجيوش العربية : القيـــادة المشتركة كانت اسماً بلا مسمى ، للدعاية فقط ، لا يسمح للطيران المصري أن يتخـــذ قاعدة في سورية ، لا يسمح للقيادة أن تحرك عسكرياً

من مكانه، والأقلام تدبج المطولات عن التلاحم الثوري.
غدت الدولة ميكرفون اذاعة فقط .

أكثر من ذلك وأهم وأخطر . . بعد أن نحي اللواء جديد عن رئاسة الأركان وصار صعباً عليه استخدام الجيش أراد أن يجعله كياناً منعزلاً عن الشعب، والجيش دون شعب تجف عروق الحياة فيه. يصبح قوة لا معنى لها. نوعاً من المرتزقة ... عمل على تخريبه والنيل من مهمته وهيبته ، جهد في أن يجعل منه سيفاً مصلتاً بيده . غير أن جيش سورية كان دائماً من الشعب وللشعب ، يستمد منه تقاليده، ونسغ حياته ينمو ويزدهر بتأييده، كالفارس الذي يعيش للنصر والحب ، أكاليل غاره منسوجة من أماني البسطاء .

وأراد ان يشكك في دوره الوطني فقال بالحرب الشعبية ، واذا بالدكتور نور الدين ينبري للمنصة تخطئه البلاغة فيسعفه صوت جهوري ويقول كثيراً فلا يفهم أحد ما يريد ، والأكف المعدة للتصفيق تردفها الحناجر المدربة تملأ الجو ضجيجاً يشبه الحماس .

كنت أقرأ خطاباته فأكاد أغفو ، ويشد أزري حب الاطلاع فأستمر لعلي أجد بعض ما له معنى ،

ولكن مستحيل . وأقارن بين ما أخمن وما قرأت عن حروب الأنصار وحرب الفيتنام فأجد المفاهيم مقلوبة ، وأحاول ان استخلص فلا أجد رغبة ملحة في النيل من الجيش ، وقد يكون وراء ذلك رغبةٌ في حله غيرُ جريئة ، وما كنا نسمع لم يكن إلا مقدمات ، كأن حرب الجيوش ليست شعبية ، او كأن الدول التي تبنيها ليست ثورية بالقدر الكافي .

تلك السياسة العجيبة كانت هزيمةُ حزيران نتيجةً حتمية لها ، فما السر في ذلك ؟

لم تكن مقدماتها غبية أبداً !! فأنا لم أشك لحظة في أن اللواء صلاح جديد من أذكى من عرفت ، وأضيف أنه ألأم من عرفت ...

كان كالظل المتوحش يأكل كل شيء دون أن تحس بوجوده إلا بعد حين ، تستحيل على يده المثلُ كلماتٍ ، والنظامُ فوضى ، والسياسة ضغينة ... لا أشك في أن أحقاده لعبت دوراً أساسياً في حرب حزيران ، وأراد أن يخرج من نتائجها بريئاً ، غير أن الشعوب لا تغفر ، تنتصر أخيراً مهما غلبها المتسلطون ... بعد حزيران كان التصميم واضحاً على أن تبقى

راياتنا منكسة ، وأن تظل الهزيمة هزيمة نجرُّ عارها وتغوص جباهنا في وحلها . مرت عليها ثلاث سنوات باتت فيها الأخطاء التي كانت أسباباً واضحة وضوح الشمس ، حتى لأقل البشر إدراكاً ، لم تعمد خلالها قيادة الحكم في سورية الى رب‍ء خطأ واحد ... كانت تعد وتحتال ثم لا تريم مواقعها ، والنقد الذاتي يترى ، والاعترافات المأساوية تجلجل ، فنظن خيراً ثم لا شيء ... أليس ذلك دليلاً على أن الخطأ لم يكن سهواً؟

سنوات ثلاث والتهريج بلغ القمة ، وسورية . تركع أكثر فأكثر ، تحترق عضواً عضواً ... تنزل سريعاً الى الهاوية كقديسة أسيرة علج ، والعار يغرز في جبينها شوكه حتى يسمل عينيها ...

سنوات ثلاث وكل ما في سورية موات : الجبهة الشرقية موات ... والقيادة الموحدة موات ... الوحدة الوطنية موات ... كل شيء موات إلا الألم يعنف ويقسو ، يحرق الضمير والقلب .. !

سنوات ثلاث وسورية تتجه الى الجيش بقضها وقضيضها ، في السر والعلن لأنها كانت مشلولة اليد ،

وكان وحده قادراً على التبديل ... كان المضطهدون وقد أعيتهم الوسيلة يفكرون به وبه فقط .

قد يقول قائل : ولِمَ ... ؟ في البلدان النامية ما زال الجيش وسيبقى الى أجل بعيد ممسكاً بزمام الأمور ذلك واقع تاريخي لا يمكن تجاهله . لم تستطع المنظمات أن تصبح قوة سياسية فاعلة ، لم تصبح شعبية بالمعنى الصحيح . . . هذا وبعد هل كان ممكناً لجيش سورية أن يسلمها أبداً للذئاب والهزيمة ؟

أرنو من بعيد الى ما حدث ، أتفاءل حتى الفرح .. إيماني أن سورية لا يمكن أن تكون كما أريد لها ، لا يمكن إلا أن تكون سيدة من سيدات التاريخ ، إذا ركعت يوماً فهي لا تركع أبداً .

يبدو أن سورية تطرح عن كاهلها أوزارالدكتاتورية لتحمل مرة أخرى أثقال العرب :

ذلك قدرها ، لا تتفتح إلا مؤولة ، رائدة كفاح وقائدة طريق ... يبدو ان المشعل يتأهب كي يضيء بيدها ...

سعادة أن تعود سورية كما كانت عبر التاريخ ...
تلك أجمل أماني المنفى ...
لقد بات المنفى سعيداً رغم كل شيء ...

مطابع جورج ابي عكر
بيروت ـ لبنان

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها